الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية — الموسم الجامعي:2023/2022
قسم العلوم الاجتماعية — المستوى: ثانية فلسفة
المقياس: فلسفة التاريخ — الأستاذ: عبد الله زين (أستاذ محاضر ب)

المحاضرة الثانية: التاريخ والأسطورة (علاقة التاريخ بالأسطورة من خلال الأعمال التاريخية الكبرى- هيرودوت-)

تمهيد:

إن فضول الإنسان دفعه منذ القدم إلى التفكير في ما حوله، ومحاولة طرح تفسيرات لذلك (الكون، المصير، أصل الوجود وغيرها)، و قد تعددت تلك التفسيرات نتيجة لتعدد أنماط التفكير البشري؛ كالتفكير الأسطوري والتفكير الديني والتفكير الفلسفي والتفكير العلمي .

فما المقصود بالأسطورة ؟ وما علاقتها بالتاريخ عموما والتاريخ عند الإغريق خصوصا ؟

الأساطير في اللغة العربية جمعٌ لكلمة أُسطورة، ويُراد بها الكلام المُلَفّق الذي لا أصل له، أما معنى أساطير الأولين في القرآن الكريم فهي: ما سطّره وكتبه الأولون من أباطيل وترّهات، أو كل شيء كتبوه وكان كذبًا .

بعد التعرف على معنى أساطير الأولين في القرآن الكريم لا بدّ من ذكر المواضع من القرآن الكريم التي وردت فيها هذه العبارة، فقد وردت هذه العبارة في تسعة مواضع وفيما يأتي بيانٌ لهذه الآيات:

الموضع الأول في سورة الأنفال: حيث قال الله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}.[٨] الموضع الثاني سورة النحل: حيث قال الله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}.[٩] الموضع الثالث سورة المؤمنون: حيث قال الله تعالى: {لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}.[١٠] الموضع الرابع سورة الفرقان: حيث قال الله تعالى: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}.[١١] الموضع الخامس سورة الأحقاف: حيث قال الله تعالى: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}.[١٢] الموضع السادس سورة المطففين: حيث قال الله تعالى: {إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}.[١٣] الموضع السابع سورة النمل: حيث قال الله تعالى:{لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}.[١٤] الموضع الثامن سورة القلم: حيث قال الله تعالى: {إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } .

1-الأسطورة والتاريخ في بلاد الاغريق:

تعتبر الأسطورة واقعة شديدة التعقيد، وتشير إلى أحداث تاريخية حدثت في الزمن السحيق، وقد اختلف الباحثون في تعريفها؛ إذ عرفها مرسيا إلياد بقوله: " الأسطورة قصة تروي تاريخا مقدّسا، تروي حدثا جرى في الزمن البدائي، هو زمن البدايات " .

ولرفع اللبس عن الأسطورة ينبغي تمييز النص الأسطوري عن غيره من النصوص من خلال جملة من المعايير هي:

-من حيث الشكل، الأسطورة هي قصة تحكمها مبادئ السرد القصصي من حبكة وعقدة وشخصيات وما إليها، وغالبا ما تجري صياغتها في قالب شعري يساعد على ترتيلها في المناسبات الطقسية وتداولها شفاهة .

-يحافظ النص الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن، وتتناقله الأجيال طالما حافظ على طاقته الإيحائية بالنسبة إلى الجماعة .

-لا يعرف للأسطورة مؤلف معين؛ لأنها ليست نتاج خيال فردي، بل ظاهرة جمعية يخلقها الخيال المشترك للجماعة وعواطفها وتأملاتها، ولا تمنع هذه الشخصية الجمعية للأسطورة من خضوعها لتأثير شخصيات روحية متفوقة .

-يلعب الآلهة وأنصاف الآلهة الأدوار الرئيسية في الأسطورة، فإذا ظهر الإنسان على مسرح الأحداث كان ظهوره مكملا لا رئيسيا .

-تتميز الموضوعات التي تدور حولها الأسطورة بالجدية و الشمولية، وذلك مثل التكوين والأصول، والموت والعالم الآخر وسرد الوجود، وما إلى ذلك من مسائل التقطتها الفلسفة فيما بعد .

-تتمتع الأسطورة بقدسية وبسلطة عظيمة على عقول الناس ونفوسهم .

وبالاعتماد على المعايير السالفة الذكر، يمكن أن نعرف الأسطورة بأنها: " حكاية مقدسة ذات مضمون عميق يشف عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان " .

لقد كان للتفكير الأسطوري تأثير كبير على مجالات معرفية مختلفة ومنها التاريخ عند القدماء، ومنهم الاغريق؛ فقد كان خلق الأساطير أول خطوة خطاها الإنسان اليوناني القديم في طريق الإبداع واكتشاف نفسه، وعند إقدامنا على معالجة الأسطورة الإغريقية نجد أنها كانت موضوع عمل دائم لم يتوقف في وصف تلك الحياة التي كانت تعيشها الآلهة وصفاتها الثابتة كالجمال والقدرة على الظهور بأي مظهر والخلود وغيرها .

إن الأسطورة والتاريخ ينشآن عن التوق إلى معرفة أصل الحاضر، ولكنهما يختلفان في القيمة التي ننسبها على ذلك الأصل؛ فهو أصل قدسي عند الأسطورة، وأصل دنيوي مفرغ من الأسطورة عند التاريخ، كما أن الأسطورة تنظر للتاريخ باعتباره تجل للمشيئة الإلهية، أما التاريخ ينظر لموضوعه باعتباره تجل للإرادة الإنسانية في جدليتها مع قوانين فاعلة في حياة الإنسان الاجتماعية .

لم يعرف الاغريق قصص و أساطير الآلهة فقط، بل كانت هناك قصصا وأساطيرا يختلط فيها الإنساني بما فوق الإنساني تروي وتقدم إجابات عن الخلق والكون، كما قدمت أشعارا تسرد الحروب اليونانية وبطولات الأولين، فالأسطورة بوصفها شكلا من أشكال المعرفة التاريخية، كانت في الوقت نفسه مصدرا للقواعد والمبادئ الدنيوية .

إذا أردنا أن نقابل بين الأسطورة والعقل أمكن القول أن كلمة أسطورة تعارض العقل " اللوغوس " ، كما أن كلمة خيال تعارض كلمة منطق، أو كما الكلمة التي تروي تعارض الكلمة التي تبرهن . من هنا فإن كلمتي: لوغوس و ميثوس، هما وظيفتان أساسيتان إلا أنهما مختلفتان؛ فمهمة اللوغوس الاستدلال البرهاني والإقناع ومطابقة المنطق، بينما الأسطورة لا غاية لها إلا ذاتها نصدقها أولا بإيمان لدينا إذا أحببنا تصديقها، وهذا ما سنشهده في تفسير التاريخ عند الاغريق، أين نجد الميثوس تمتزج مع اللوغوس في كل الأحداث التاريخية سواء أكانت هذه الأحداث من فعل الآلهة أو من فعل الإنسان أو كانت تجمع بين الآلهة والإنسان في أحداث مشتركة، لذلك يقال أن الأسطورة لم تخضع للتحليل الطويل والناقد كما خضعت له في الثقافة اليونانية، حتى خرجت منه منزوعة " الأسطورة " جذريا والقداسة التي كانت تتمتع بها .

2-بدايات الوعي بالتاريخ عند الاغريق:

تطور الوعي بالتاريخ عند الاغريق تدريجيا بانتقاله من الأسطورة إلى العقل، وقد مر بمحطات هامة تمثلها ثلاث شخصيات فكرية بارزة في الثقافة التاريخية اليونانية وهي: هوميروس- هزيود – هيرودوت .

أ-هوميروس (Homère / 850 ق م):

هو شاعر ملحمي اغريقي أسطوري، عاش في القرن التاسع قبل الميلاد (850 ق م)، تنسب له ملحمتا (الإلياذة و الأوديسة)، وقد صور من خلال ملحمتيه بطولات الإغريق خلال حروبهم ومنها حرب طروادة . كما يعتبر "هوميروس" أشهر شعراء الملاحم ورمز الوطنية والمصدر الموثوق به لتاريخ الإغريق القديم ، وقد أشاد به أفلاطون حيث يقول: « أن من تسنى له فرصة فهم هوميروس يهيمن على أساليب الفنون جميعا هيمنة تامة » .

تجدر الإشارة إلى أن "هوميروس" ليس مؤرخا يسجل كل الوقائع التي حدثت في الحرب بكل دقة، بل هو شاعر وفنان وله أن يختار من الأحداث ما يناسب ملحمته، وقد كان هدفه التغني بأمجاد الأبطال .

ب-هزيود (Hesiode/ 777-848 ق م):

هزيود شاعر إغريقي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد، امتاز بروح تعليمية وبالبحث عن الحقيقة، من أعماله: قصيدة " الأعمال والأيام " و " أنساب الآلهة " . تناول في القصيدة الأولى مجموعة من الدروس والنصائح في الأخلاق، كما يصف فيها كيف تعاقبت خمسة عصور في تاريخ المجتمع البشري وهي: العصر الذهبي، العصر الفضي، العصر البرونزي، العصر البطولي، العصر الحديدي .

يرى "هزيود" على خلاف "هوميروس" أنه ينبغي الفصل بين الآلهة كآلهة وبين الآلهة كموضوع للعبادة، كما نجد عنده تنظيما أوضح وأكثر عقلانية لعلاقات الآلهة بعضهم ببعض، مما جعل " اتسلر " يقول: « إن هزيود يقع على الخط الفاصل بين عصرين: عصر التفكير الديني الأسطوري، وعصر التفكير التأملي بوسيلته العقل » .

3-التأسيس لعلم التاريخ عند الإغريق: (هيرودوت – Herodotus / 484-425 ق م)

في هذه المرحلة اتضحت ملامح الكتابة التاريخية في صورة تكاد تكون خالية من سطوة الأسطورة؛ بحيث أصبح تفسير التاريخ قائما على أساس عقلي منطقي، ويمثل هذه المرحلة بعض المؤرخين البارزين مثل: هيكاتيوس الملطي و هيرودوت و تيوكيديدس .

أ-هيكاتيوس الملطي Hecataeus:

هيكاتيوس مؤرخ اغريقي ولد بمدينة ملطية حوالي سنة 546 ق م، وقد اشتهرت هذه المدينة بالكتابة النثرية والفلسفية الإغريقية الناقدة . كتب هيكاتيوس حول أصل الشعب الإغريقي في تحولاته الأولى .

إذا كان لهيكاتيوس دوره في تطوير الكتابة التاريخية عند الإغريق، فإنها تتجلى فيما يلي:

-جعل الحقيقة مقياسا لما يرد من روايات تاريخية .

-اتخاذ اتجاه نقدي صريح تجاه الأساطير اليونانية حول نشأة الخلق .

-شكّل كتابه المسمى: " الأنساب " أول محاولة يقترب بها كاتب من طبيعة النقد التاريخي اقترابا شعوريا عن وعي صادق، لذلك يقول: " إن ما أدوّنه هنا، هي الرواية التي اعتبرها صادقة وحقيقية، لأن قصص الإغريق عديدة، وهي في رأيي تبعث على السخرية " .

ب-هيرودوت Herodotus : (484-425 ق م)

لا جدل في أن التاريخ لم يكن علما قائما بذاته إلى غاية "هيرودوت"، لكنه مع ذلك مدين إلى سابقيه مثل "هوميروس" و "هزيود" والعهد الكلاسيكي اليوناني بظهور وعي تدريجي الوضوح، بحيث أصبح أكثر اهتماما بالبشر وبعدا عن الآلهة، لكن "هيرودوت" الذي ظهر في القرن الخامس قبل الميلاد أعطى البداية الفعلية لاهتمام اليونان المباشر بالتاريخ، فقد بدأ التاريخ يتخلص من سطوة الأسطورة بواسطة لمحات ذكية من التفكير التاريخي، يقول "هيرودوت" في مقدمة كتابه :« هذه أبحاث هيرودوت الهاليكارناسي، كتبها ليبقى ذكر أفعال الرجال حيّا ومآثر الإغريق والبرابرة وأعمالهم المجيدة خالدا، وهدف منها توثيق أسباب النزاع بينهم » .

ما يمكن أن نستشفه من قول "هيرودوت"، ومن خلال كتابه " تاريخ هيرودوت " ما يلي:

-أنه لم يقتصر على جمع الحقائق والروايات، وإنما الكشف عن حقيقة ما حدث في الماضي .

-ما يريد تقديمه في هذا التاريخ، لا يهتم بالآلهة وأعمالها، بل بالإنجازات التي قام بها الإنسان (الإغريق والبرابرة)

-تقديم دراسة اجتماعية تاريخية لأحداث إنسانية لها ما يبررها، أو يبرر القيام بها في تفكير الإنسان، تختلف عن دراسة الأساطير ولا تستند إلى سلطة الآلهة .

-سمى كتابه بالتاريخ أو التحقيق، ويعني التمحيص والتفحص أو البحث، وبذلك نجد أن مضمون الكتاب يشتمل على معلومات جغرافية وتاريخية ودينية وقصصية .

-استعمال أسلوب النثر في كتابة التاريخ، خلافا لسابقيه الذين استعملوا الملاحم .

-اعتمد في كتابة تاريخه على رحلات واسعة في أرجاء الإمبراطورية الفارسية من بابل إلى مصر، ووصف عادات أهلها .

-اعتمد على التفكير العقلاني وعدم الثقة التامة في الروايات التقليدية .

إن الموضوعية التاريخية تكاملت عند "هيرودوت" في تفسيره للأحداث التاريخية مع فلسفته التاريخية التي استندت إلى إيمانه بتغير الخط الذي يبدو في عرضه التاريخي للأحداث، وكأنها أقدار إلهية يؤدي كل فرد أو كل شعب فيها حسب قدرته وفي نفس الوقت، فعلى سبيل المثال يرجع هلاك أهل طروادة حسب "هيرودوت" : « إلى تدبير إلهي ليتضح للناس من هلاك طروادة الذريع، أن الآلهة تنزل العقوبات الصارمة جزاء وفاقا للأخطاء الجسيمة، ذلك هو رأيي الشخصي » .

---

*حرب طروادة:(1194-1184 ق م) هي حرب وقعت بين الإغريق وأهل طروادة، وقد دامت عشر سنوات، وهي واحدة من أشهر الحروب في التاريخ، وذلك لخلودها في ملحمتي هوميروس (الإلياذة والأوديسة) اللتان تحدثتا عن بعض أحداث حرب طروادة .

* طروادة (Troy): هي مدينة بحرية تقع في آسيا الصغرى غنية، تحكي الأسطورة أن " بوسايدن" إله البحر بناها برفقة " أبولو " إله الشعر والفنون .

تعيد الأساطير أسباب حرب طروادة إلى مشاحنة إلهية بين آلهة الأوليمب الإثني عشر، وخلاف بين الربات الثلاث: هيرا، أفروديت، أثينا . حول الأجمل منهن وقيام ملك طروادة " باريس " بخطف هيلين ملكة أسبارطة وزوجة ميلاوس .

ج- تيوكيديدس Thycydides :

تيوكيديدس مؤرخ يوناني عاش ما بين سنتي (471-425 ق م)، عاصر في جزء من حياته المؤرخ هيرودوت، لذلك يلتقي معه في إضفاء صفة العلمية على التاريخ؛ إذ حاول جاهدا تحقيق قدر من الموضوعية والحياد في كتاباته التاريخية، وكذا استبعاد الأفكار الأسطورية من التاريخ، إلا أنه يختلف عن هيرودوت في بعض النقاط منها :

-حصر مجال التاريخ في نطاق ضيق (حرب البلوبونيز التي وقعت بين مدينتي أسبرطة وأثينا) .

-توخي الدقة في التأريخ للحوادث (تحديد الموضوع الذي يؤرخ له، وتحديد أسباب اختيار موضوعه) .

-خصوصية الموضوع (الصراع الداخلي بين اليونانيين)، فرضت عليه التزام الموضوعية والحياد في عرض الأحداث (عدم انحياز تيوكيديدس لأثينا ولزعيمه بركليس رغم إخلاصه له)، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على علمية الفكر الخلدوني عند تيوكيديدس .

-كتب تأريخه بصورة أشبه ما تكون بالكتابات الإبقراطية الطبية؛ بحيث خلا كتابه من تمجيد الآلهة والمعجزات، كما عنى بتحقيق الأحداث تحقيقا علميا وأكثر تركيزا في روايتها .

-التركيز على النقد والتمحيص؛ " إذ أكد أن قيمة العمل التاريخي تعتمد على صدق ما يرد فيه من روايات ومطابقتها للحقيقة، أكثر مما تعتمد على التسلية في سرد الاحداث " . كما كان تيوكيديدس يعنى كثيرا بتقصي الحوادث ومحاولة معرفة أسبابها .

-اعتمد في جمع المادة التاريخية على مصادر مختلفة (معايشته للأحداث، المعلومات التي استمدها من الرواة، بعض الوثائق التي حصل عليها، مثل نصوص معاهدة انيكياس، الشواهد الأثرية التي تدل على أصول اليونانيين .

-لم ينظر للتاريخ كعلم تتمثل وظيفته في جلاء الحاضر وتوضيحه، وإنما كعلم يرسم طريق المستقبل؛ بحيث كان يقول بدورة الشؤون البشرية، حيث يقول: " العلم الدقيق بحوادث الماضي قد يفيد لأن من المحتمل أن يحدث في المستقبل شيء من قبيل ما حدث في الماضي " . (التاريخ يعيد نفسه) .

أخيرا يمكن القول بأنه على الرغم من وجود تفاوت بين مؤرخي اليونان، في القدرات العقلية والمنهجية وأسلوب التأريخ، إلا أنه كان لهم دور كبير في تنامي الوعي التاريخي لدى الإغريق، وكذا تنامي اهتمامهم بماضيهم التليد، الذي يشكّل مقوما من مقومات الحضارة اليونانية .